تلخيص كتاب: طبائع الاستبداد

مجلة الحقوق والعلوم السياسية العدد ٢/٢٠١٥

عصام نعمة إسماعيل

من أبرز حالات النهضة العربية نادى في كتاباته بالحرية، ورأى بأن الأمة التي لا تشعر بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية. والاستبداد، كما يراه عبد الرحمن الكواكبى هو "داء الشرق". ولأن علم السياسة من منظوره يعنى " إدارة الشئون المشتركة بمقتضى الحكمة "، فإن المحور الأهم للاستبداد هو التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الهوى ".

يقول الكواكبى إن الاستبداد لغة: " هو اقتصار المرء على رأى نفسه فيما ينبغى الاستشارة فيه"، ويضيف: " يُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة، لأنها هى أقوى العوامل التى جعلت الإنسان أشقى ذوى الحياة، وأما تحكم رؤساء بعض الأديان وبعض العائلات وبعض الأصناف، فيوصف بالاستبداد مجازا أو مع الإضافة ". أما في اصطلاح السياسيين، فهو تصرُّف فرد أو جمع في حقوق قومٍ بالمشيئة وبلا خوف تبعة[١].

والمستبد يتحكم بشؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته، والمستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما، يودُّ أن تكون رعيته كالغنم دراً وطاعة وكالكلاب تذللاً وتملقاً، وأما أقبح أنواع الاستبداد، فهو استبداد الجهل على العلم[٢].

وحكومة الاستبداد هي أسوء الحكومات، لأن لا رابط بينها وبين مواطنيها إلا الظلم، ورأى بأن الاستبداد لا يقتصر على شكلٍ واحدٍ من الحكومات، إذ يوجد الاستبداد في حكومة الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة، أو في حكومة الفرد المقيدَّ المنتخب متى كان غير مسؤول، وفي حكومة الجمع ولو منتخباً لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد، بل يمكن أن تضاهي استبداد حكومة الفرد. ويرى بأن أشد الحكومات استبداداً هي حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش القائد للجيش والحائز على السلطة الدينية[٣]. ويعتقد بأن ما

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد- دار النفائس الطبعة الثالثة ٢٠٠٦ ص ٤٠.
(٢) عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٤٢.
(٣) عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٣٨.

من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة أو التمكن من اغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها احدى الوسيلتين العظيمتين، جهالة الأمة والجنود المنظمة، وهما أكبر مصائب الأمم وأهم معائب الإنسانية، وقد تخلصت الأمم المتمدنة من الجهل ولكنها بليت بشدة الجندية الجبرية، تلك الشدة التي جعلتها أشقى حياةً من الأمم الجاهلة وألصق عاراً بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، فهي تزرع الشراسة في قلب الأمة والطاعة العمياء وتكلفها مصاريف طائلة لتأييد الاستبداد المشأووم[٤]. لذا فإن أي حكومة من أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التى لا تسامح فيها ".

والاستبداد السياسي له علاقة بمختلف جوانب الحياة فنرى ملامحه في الدين والعلم والتربية والمال، الأخلاق، التربية، الترقى؛ ولكن ذلك لا يعني أنه لا يوجد وسيلة يمكن من خلالها التخلص من الاستبداد.

أ- الاستبداد والدين

تضافرت آراء أكثر العلماء أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الدينى، فهما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة إلى التعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنهما حاكمان، أحدهما حاكم فى عالم القلوب والآخر متحكم فى مملكة الأجسام "[٥]، وأن هذا التشاكل بين القوتين ينجرّ بعوام البشر وهم السواد الأعظم إلى نقطة يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر[٦]. وهذا ما سهَّل تقديس أشخاص لا يستحقون التقديس، حتى يُقال بأنه ما من مستبدٍ سياسي إلى الآن إلا ويتخذ له صفة قدسية تعطيه مقام ذي علاقة مع الله[٧].

يرفض الكواكبى أن يحكم على الإسلام بالنظر إلى سلوك حكام المسلمين الذين يستعينون بالدين ورجاله لتدعيم استبدادهم، ويرى أن الإسلام جاء بالحكمة والعزم: " هادما للتشريك بالكلية، ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والأرستقراطية [٨]". فالقرآن الكريم، كما يقول الكواكبى، كتاب " مشحون بتعالم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى حتى فى القصص منه "، والديانة الإسلامية: " مؤسسة على

---

[٤] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٣٩.
[٥] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٣٩.
[٦] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٤٧.
[٧] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٤٧.
[٨] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٥١.

أصول الإدارة الديمقراطية، أى العمومية، والشورى الأرستقراطية، أى شورى الأشراف[٩]، وإلى الرقابة والمحاسبة المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلمة الحق أمام سلطانٍ جائر.

يهاجم الكواكبي المتعممين وتملقهم الذي حرَّف الدين، فهم بطاعة المستبدين يقولون على الله ورسوله الكذب سبيلاً لإرضاء النافذين. يرى الكواكبي أن الاستبداد هو في سوء استغلال الدين وليس في ذاته كدين، وأن الاستبداد يؤدي إلى تراجع العلوم تماما كما أنه يسيء إلى الدين ويطمس ملامحه الإيجابية.

ب- الاستبداد والعلم

يمثل الجهل سلاحا مهما لكل مستبد، فالأمة الجاهلة أسلس فى قيادها، وأكثر عرضة لتقبل الاستبداد والخضوع للمستبدين، أو كما يقول الكواكبى: " لا يخفى على المستبد أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط فى ظلامة جهل وتيه وعماء. فلو كان المستبد طيرا لكان خفاشا يصطاد هوام العوام فى ظلام الجهل، ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر فى غشاء الليل"[١٠]. والمستبد لا يخشى علوم اللغة، ولا علوم الدين المختصة ما بين الإنسان وربه، ولكن ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية وغيرها من العلوم التي تكبِّر النفوس وتوسِّع العقول وتعرِّف الإنسان ما هي حقوقه[١١].

فالعلم يصنع الوعى واليقظة، أما الجهل فإنه يعين المستبد فى تحقيق غاياته وأهدافه. كلما ازداد جهل الرعية، توغل المستبد فى توحشه وقمعه. لذا فإنهما سلطتان متعارضتان لا مهرب من الصراع بينهما: سلطة العلم فى مواجهة سلطة الاستبداد، والحرب دائمة لا تنقطع. ليس من مجال للتصالح والتعايش، ذلك أن النظام الاستبدادى لا مستقبل له بمعزل عن استمرار جهل العوام. وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته، لأن أكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم لأن هؤلاء هم أشقى خلق الله يرتكبون كل جريمة وفظيعة لحساب المستبد"[١٢]، الذي لا يجد السعادة ولا ينعم بالاستقرار، فهو فى خوف دائم من تبدل الأحوال وانتشار الوعى: " والغالب أن رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من

---

[٩] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٥٢.
[١٠] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٦٥.
[١١] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٦٦.
[١٢] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٦٩.

يتمكن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أن كل الأنبياء العظام والأئمة والعلماء، تقلبوا فى البلاد وماتوا غرباء "[١٣].

ج- الاستبداد والمجد

يقدم الكواكبى تعريفا للمجد، قوامه: " إحراز المرء مقام حب واحترام فى القلوب، وهو مطلب طبيعى شريف لكل إنسان لا يترفع عنه نبى أو زاهد، ولا ينحط عنه دنى أو خامل "، وبحث عن أي الحريصين أقوى، حب الحياة أم حب المجد، فوجد أن المجد مفضَّل على الحياة عند الملوك والقادة وظيفةً، وعند النجباء والأحرار حميةً، وحبُّ الحياة ممتاز على المجد عند الأُسراء والأدلاء طبيعة، وعند الجبناء والنساء ضرورةً[١٤].

والمجد الحقيقى " لا يُنال إلا بنوع من البذل فى سبيل الجماعة، وبتعبير الشرقيين فى سبيل الله أو سبيل الدين، وبتعبير الغربيين فى سبيل الإنسانية أو سبيل الوطنية". مثل هذا النوع من المجد، المقترن بالفضائل والأعمال المجيدة، يختلف عما يسميه الكواكبى بـ " التمجد "، والفارق بين النوعين هو دخول الاستبداد ليفسد ويشوه ويغير المسار: " التمجد خاص بالإدارات المستبدة، وهو القربى من المستبد بالفعل، وذلك بخلاف الحكومة الحرة التى تمثل عواطف الأمة وتأبى كل الإباء إخلال التساوى بين الأفراد إلا لموجب حقيقي، فلا ترفع قدر أحد منها إلا أثناء قيامه فى خدمتها، أى الخدمة العمومية، كما أنها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب، إلا إعلانا لخدمة مهمة وفقه الله إليها "[١٥].

أما التمجد فهو شراء الذمم والنفوس بالألقاب الكاذبة والهالات المصنوعة التى تكرس الظلم وتحافظ على ثوابته، والحكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقا، لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس، إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة ". سلسلة من المستبدين، تبدأ بالحاكم وتصل إلى الكناس، ولكل أسلوبه فى الاستبداد، ولكل صفاته ونفوذه المحدد والشكليات التى يتسلح بها. ليس من ضحية لهذه السلسلة الجهنمية من المستبدين إلا الأمة، تلك الكتلة الشعبية العريضة التى تدفع الثمن فادحاً من جسدها وقدراتها.

الولاء فى ظل الاستبداد لم يمنح المجد الزائف، والمستبد الأكبر لا يستمد بقاءه وقوته إلا بالاتكاء على المستبدين الأصاغر الذين صنعهم: " والنتيجة أن المستبد فرد عاجز لا قوة فيه ولا حول له إلا بالمتمجدين،

---

[١٣] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٧١.
[١٤] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٧٣.
[١٥] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٧٦.

والأمة المأسورة ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء، حتى إذا اكفهرت سماء عقول بنيها، قيَّض الله لها منها قادةً أبراراً، يشترون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم "[١٦].

د- الاستبداد والمال

المقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما هما تحصيل لذة أو دفع ألم وفيهما تنحصر كل مقاصد الإنسان وعليهما مبنى أحكام الشرائع كلها، والمال عند الأخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة، وعند السياسيين ما تستعاض به القوة، وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل[١٧]. وكل ما ينتفع الإنسان بثمرته هو مال، وكل هذه الأموال معرضة لإفساد الاستبداد ومجلبة فيه للوبال ". لكن المال فى ذاته ليس مفسدة أو شراً، بل الاستبداد يحيله إلى أداة دمار، فالاستبداد الذى يصنع كل الشرور، يملك أن يحول الإيجابى المفيد إلى سلبى مضر. ثم إن رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضا، فإن رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يتجاوز الواحد فى المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من أموال البشر أو زيادة، ينفقونه فى الرفه والإسراف، مثال ذلك أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانا، ولا يفكرون فى ملايين من الفقراء يعيشون فى بيوتهم فى ظلام "[١٨]. فالأقلية المرفهة هى من تصنع الاستبداد وتحميه وتفيد منه وتحرص على بقائه، وبفضله تحكم وتتحكم وتتنعم وتسرف فى الاستغلال الجشع.

أما التمول، أى ادخار المال، فلقد تطبع عليه الإنسان، ويقيِّده الكواكبي بثلاثة شروط، أولها أن يكون إحراز المال بوجهٍ مشروع، والثاني أن لا يؤدي التمول إلى التضييق على حاجيات الآخرين، والثالث أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير[١٩].

لكن طبيعة الاستبداد تجعل تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدى على الحقوق العامة، وبغصب ما فى أيدى الضعفاء، ونحو ذلك من الوسائل المقدورة لكل إنسان ترك الدين والوجدان والحياة جانبا، وانحط فى أخلاقه إلى ملاءمة المستبد الأعظم أو أحد أعوانه وعماله. كما تجعل من حفظ المال عندهم أصعب من كسبه، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه، ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة "[٢٠].

---

[١٦] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٨٨.
[١٧] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٩٤.
[١٨] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٩٢.
[١٩] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ٩٧.
[٢٠] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٠٢.

هـ- الاستبداد والأخلاق

يتصرف الاستبداد في أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيضعفها ويفسدها أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه، لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد، ويجعله حاقداً على قومه لأنهم عون لبلاء الاستبداد عليه، وفاقداً حب وطنه، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودُّ لو انتقل منه، ومختل الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافوء وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون، ولا يملك شيئاً ليحرص على حفظه لأنه لا يملك مالاً غير معرَّض للسلب ولا شرفاً غير معرَّض للإهانة. وهو لا يشعر بلذاتٍ في هذا الكون سوى بعض اللذات اللبهيمية، ويكون شديد الحرص على جياته الحيوانية وإن كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها، ويصبح مثله كمثل الشيخ الهرم الذي تمسي حياته أسقاماً وآلاماً ويقترب من القبر، ولكنه يحرص على الحياة أكثر من الشباب في مقتبل العمر[٢١].

والاستبداد " يسلب الراحة الفكرية فيضنى الأجسام فوق ضناها بالشقاء، فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة فى الناس. والعوام الذين هم قليلو المادة فى الأصل، قد يصل مرضهم العقلى إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر، فى كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية، ويصل تسفل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فينصاعون بين يدي المستبد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب تجري على قدميه جاهدةً إلى حتفها، وهكذا يستولي الاستبداد على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد ويتغلب على تلك الأذهان الضئيلة فيشوش فيها الحقائق بل البديهيات كما يهوى[٢٢].

ولا تنفصل الأخلاق عن المناخ العام لكل وأى مجتمع إنسانى، وعندما يتراجع العقل وتتلاشى القدرة على إعماله والاحتكام إليه، يبدو السبيل ممهدا أمام المزيد من التدهور والانهيار والسقوط. ولأن الاستبداد هو صانع المناخ السيء، ولأنه أيضا سالب العقل ومفسد قدراته، يبدو منطقيا أن تتعرض الأخلاق لمحنة قاصمة فى إطار الاستبداد. وقد يدخل على الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة فى الإدارة الحرة ويسلمّون له بها، فيقولون بأن الاستبداد يلين الطباع ويلطفها، والحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة، ويقولون الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد، والحق أن هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن إرادة واختيار، أو

---

[٢١] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٠٧.
[٢٢] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٠٨.

يقولون هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره، والحق أنه مع الكراهة والبغض لا عن الميل والحب، ويقولون الاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحق فيه إنه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين، ويقولون هو يقلل الجرائم، والحق أنه يخفيها فيقل تعديدها لا عددها "[٢٣].

وأقل ما يؤثر الاستبداد فى أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان، ويعين الأشرار على إجراء غي نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لأن أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شر، وعقبى ذكر الفاجر بما فيه، لهذا شاعت بين أسراء الاستبداد مقولات كثيرة باطلة، إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، ويعلَّمهم الفقهاء الآية الكريمة:" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول" ويُغفلون بقية الآية:" إلا من ظلم"[٢٤].

لذا لا يرى فى الحكم الاستبدادى إلا الشر المطلق، وأخطر ما فى هذا النظام أنه يزلزل الأخلاق ويهدم ثوابت الأمة، التى يستحيل تعويضها إلا بجهد شاق، وفى إعادة البناء هذا عناء يضيف الكثير إلى عناء الأمة وعذاباتها.

و_ الاستبداد والتربية

خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه، أي أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وإذا كان الاستبداد يؤثِّر على الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمنع نماءها، فمن الطبيعى أن تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته[٢٥].

التربية ملكة تحصَّل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس، فأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين. وجعل الدين فرعاً لا أصلاً لأن الدين علم لا يفيد العم إذا لم يكن مقروناً بالتمرين. والاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة فى شأن، وهو مفسد للدين فى أهم قسميه، أى الأخلاق ". قد يكون صحيحا أن الاستبداد لا يتعرض لجانب العبادات فى الدين، وتفسير ذلك مردود إلى أن هذه العبادات

---

[٢٣] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٠٩.
[٢٤] سورة النساء آية ١٤٨- عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١١٢.
[٢٥] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٢٥.

لا تتعارض مع الاستبداد أو تهدده، بل إنها تقويه وتعينه وتدعمه: " ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبارات مجردة صارت عادات[٢٦].

أسرى الاستبداد خاملون خامدون حائرون، ولا أمل يُرتجى فى حصولهم على التربية المثالية المنشودة فى ظل الحكم الاستبدادى، ذلك أن تأثير الأسرة والتعليم يتأثر سلبا بالنظام العام الذى يفسده ويشوهه. ما التربية التى يمكن الرهان عليها فى ظل نظام يبيح " الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل وإماتة النفس ونبذ الجد وترك العمل،... وينتج من ذلك أن الاستبداد يربى الناس على هذه الخصال الملعونة، فيرى الآباء أن تعبهم فى تربية الأبناء التربية الأولى لا بد أن يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد، كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم سدى، فهم عبيد السلطة التي لا حدود لها،فهم غير مالكين لأنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربوُّن أولادهم لهم بل هم يربُّون أنعاماً للمستبدين[٢٧].

ويتضح مما تقدَّم أن التربية غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد، لكنها تبقى ضالة الأمة وفقدها هو المصيبة العظمى. وأن التربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز، ثمَّ على حسن التفهيم والاقناع، ثمَّ تقوية الهمة والعزيمة، ثمَّ على التمرين والتعويد، ثمَّ على حسن القدوة والمثال. على أن تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم على النظافة وتحمل المشاق والمهارة في الحركات والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل والرياضة والراحة، وأن تكون تلكما التربيتين مصحوبتان بتربية النفس على معرفة خالقها[٢٨].

ز- الاستبداد والترقى

الترقى هو حركة الشخوص، ويقابله الهبوط أو الحركة إلى الموت أو الانحلال. والترقى الذى يسعى وراءه الإنسان بفطرته هو أولاً: الترقى فى الجسم صحة وتلذذا، ثمَّ الترقى فى القوة بالعلم والمال، ثم الترقى فى النفس بالخصال والمفاخر. فالترقي بالعائلة استئناساً وتعاوناً، والترقي بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ، وأخيراً الترقي بالإنسانية وهو أسمى أنواع الترقي. وهذه الترقيات الست على أنواعها لا يزال الإنسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، وهذا المانع إما هو القدر المحتوم (العجز الطبيعي)، أو هو

---

[٢٦] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٢٧.
[٢٧] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٣٢.
[٢٨] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٣٩.

الاستبداد المشؤوم الذي يقلب السير من الترقي إلى الانحطاط، ومن التقدم إلى التأخر من النماء إلى الفناء[٢٩].

والأمة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، وكما أن البناء مجموع الانقاض جنساً وجمالاً وقوة يكون البناء، فإذا ترقت أو انحطت أفراد الأمة ترقت أو انحطت هيئتها الاجتماعية، حتى إن حالة الفرد الواحد في الأمة تؤثر في مجموع تلك الأمة[٣٠].

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور. وإذا ألزمت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها. وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها[٣١].

بزوال الرغبة فى الترقي، وبالاعتياد على الحياة الراكدة الآسنة غير القابلة للتغيير والتطور، يبدو المستقبل مظلما كالحا. والقانون الذى يستخلصه الكواكبى مستمد من التاريخ وتجارب الأمم السابقة، والحكومات العادلة وحدها هى القادرة على تدعيم فكرة الترقي، فكل فرد فيها يعيش كأنه خالد، وكيف لا يكون كذلك وهو يحظى بالكثير من النعم، مقتربا من الحياة التى تُوصف بها الجنة: السلامة والأمن، الملذات الجسمية والفكرية، الحرية، العزة، المساواة، العدل، الرزق والعدالة الاجتماعية، الشرف وسيادة القانون دون تمييز. وأنفع ما بلغه الترقى فى البشر هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة، وبناؤهم سدا متينا فى وجه الاستبداد، وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع، ولا نفوذ لغير الشرع، وبجعلهم قوة التشريع فى يد الأمة والأمة لا تجتمع على ضلال، وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء، وتكاد تحاكى فى عدالتها المحكمة الكبرى الإلهية وبجعلهم الأمة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها[٣٢].

إنها مملكة الحرية التى يرتقى الإنسان فيها إلى القمة، فكيف يتأتى ذلك الرقى فى ظل الاستبداد؟!. لا نجاة إلا بالتخلص من قيوده، وهذا هو موضوع المبحث الأخير فى الكتاب الرائد.

ح- الاستبداد والتخلص منه

---

[٢٩] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٤٢.
[٣٠] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٤٢.
[٣١] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٤٣.
[٣٢] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٦٩.

يجزم الكواكبى بأن "شكل الحكومة" هو أعظم وأقدم مشكلة فى تاريخ البشرية، وأنالوصول إلى الحكومة المثالية يفترض بدايةً رفع الاستبداد، ولقد قارب مسألة رفع الاستبداد من خلال ثلاثة قواعد هي:

- **الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية:** ذلك أن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة، تصير تلك الأمة سافلة الطباع، بل تصير كالبهائم لا تسأل عن حرية ولا تلتمس العدالة ولا تعرف للاستقلال قيمة، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها[٣٣].
- **الاستبداد لا يُقاوم بالشدة، إنما يُقاوم باللين والتدريج:** لأن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والاحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم وإقناع الفكر العام وإعانه إلى غير مألوفه، وهذا لا يتأتى إلا في زمنٍ طويل. لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات كالثروة والعظمة والجند والإرهاب. لذا لا ينبغي أن يُقاوم الاستبداد بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً[٣٤].
- **يجب مقاومة الاستبداد بتهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد:** لأن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جُهِل الطريق الموصل إليها، ولا بد من تعيين المطلب والخطة تعييناً واضحاً. والمراد أنه لا بد من تقرير شكل الحكومة التي يُرادُ أن يستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهيّن الذي تكفيه فكرة ساعات أو فطنة آحاد، وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أن يكون مقصوراً على الخواص، بل لا بد من تعميمه ليكون بعيداً عن الغايات ومعضوداً بقبول الرأي العام.

والخلاصة أنه يلزم تنبيه حس الأمة بالآم الاستبداد، ثمَّ يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقاتها، والحذر كل الحذر أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل بالمجاهدين.

---

[٣٣] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٧٩.
[٣٤] عبد الرحمن الكواكبي - المصدر نفسه ص ١٨٣.